

# الباب الثاني

## البابوات في أفنيون

١٣٠٩ - ١٣٧٧

### الفصل الأول

#### الأسر البابلي

نقل البابا كلمنت الخامس في عام ١٣٠٩ مقر البابوية من رومة إلى أفنيون . وكان كلمنت هذا رجلا فرنسيا ، وكان قبل أن يجلس على كرسي البابوية أسقفا لبوردو ، وكان الفضل في اختياره لمنصبه عائدا إلى فليب الرابع ملك فرنسا الذي أثار دهشة العالم المسيحي بهزيمة البابا بنيفاس الثامن ، وبعد اكتفائه بهذه الهزيمة بل أضاف إليها القبض عليه ، وإذلاله ، ومنع الطعام عنه حتى كاد يميته جوعا . ولم يكن كلمنت ليأمن على حياته في رومة التي كانت تحتفظ لنفسها دون غيرها بالحق في إساءة معاملة البابا ، والتي اغتازت من وقاحة الملك البادية في عدم احترامه إياه ؛ يضاف إلى هذا أن الكرادلة الفرنسيين كانوا يوثفون وقتئذ أغلبية كبيرة في المجمع المقدس ويأبون أن يضعوا أنفسهم تحت سلطان إيطاليا . ولهذا كله أقام كلمنت بعض الوقت في ليون وپواتيه ؛ ثم اتخذ مقامه في أفنيون القائمة على الضفة الأخرى لنهر الرون المقابلة لأرض فرنسا كما كانت في القرن الرابع عشر ، وكان يرجو بذلك أن يكون أقل خضوعا لفليب في إقليم يمتلكه ملك نابلي بوصفه كونت پروقانس .

وكانت الجهود الجبارة التي بذلتها البابوية من أيام جريجوري السابع

(١٠٧٣ - ١٠٨٥) إلى أيام بنيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) لإنشاء دولة عالمية أوربية بإخضاع الملوك للبابوات - كانت هذه الجهود قد أخفقت ، وانتصرت القومية على النزعة الاتحادية النظرية ، وحتى في إيطاليا نفسها رفضت جمهوريات فلورنس والبندقية ، ودول المدن في لمبارديا ومملكة نابلي سيطرة الكنيسة عليها ، وأطلت برأسها مرتين جمهورية في رومة ؛ وأخذ مغامرون من العسكريين أو السادة الإقطاعيين - من أسر بجليون Baglioni ، وبينتيفجل Bentivogli ، ومالاتيستا Malatestas ، ومنفريد Manfredi ، واسفورادسا Sforza ، أخذ هؤلاء وأولئك يستبدلون في الولايات البابوية الأخرى (\*) عجرتهم العسكرية بنواب الكنيسة . وكانت البابوية أثناء مقامها في رومة تستخدم مكانتها العظيمة التي استحوزت عليها قرونا طوالا ، وكانت الأمم قد اعتادت أن تعظمها وتخضع لسلطانها ، وتبعث لها بالأموال ؛ أما بابوية يختار لها باستمرار أحبار فرنسيون (١٣٠٥ - ١٣٧٨) ، يكادون يكونون سجناء عند ملوك فرنسا ، ويقرضون هؤلاء الملوك أموالا طائلة ليشنوا بها حروبهم ، أما بابوية من هذا الطراز فقد بدت لألمانيا ، وبوهيميا ، وإيطاليا ، وإنجلترا أنها قوة

(\*) . يمكن جمع الولايات البابوات في أقسام أربعة :

- ١ - لاتيوم وتشمل مدائن تيفولي Tivoli وتشفيثا كستلانا Civita Castellana ، وسبياكو Sabiaco ، وفيتيربو Viterbo ، وأنازي Anagni ، وأستيا ، ورومة .
- ٢ - أمبريا وتضم نارني Narni ، وأسپوليتو Spoleto ، وأسيسي Assisi ، وپتروجيا perugia ، وجيبو Gobbio .
- ٣ - ولايات الحدود وتضم أسكولي Ascoli ، واوريتو Loreto ، وأنكونا ، وسنجليا Senigallia ، وأريينو Urbino وكريينو Camerino ، وفيريانو Fabriano ، وپيزارو pesaro .
- ٤ - الرومانيا Romagna وتشمل ريميني ، وكازينا Casena ، وفورلي Forli وفانزرا Faenza ، ورافنا ، وإمولا Imola ، ويولويينا ، وفرارا .

معادية لها ، وأنها سلاح نفساني في يد الملكية الفرنسية : وأخذت تلك الأمم تغفل ما تصدره هذه البابوية من أوامر الحرمان ومن اللعنات وتزداد جرأة على هذا كلما مضت الأيام ، ولا تهبها إلا شيئاً من التبجيل الآخذ في النقصان على كره منها متزايد باستمرار .

وأخذ كلمنت الخامس يعمل في صبر وأناة للتغلب على تلك الصعاب ، ولم يخضع لفليب الرابع إلا أقل ما يستطيع من الخضوع ، وكان فليب هذا يصلت فوق رأس كلمنت سيف التهديد ، بأن يكشف للعالم عن سلوك بنيفاس الثامن ومعتقداته الدينية بعد أن توفي هذا البابا . واشتدت حاجة البابا إلى المال فأخذ يبيع الرتب الكهنوتية إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ، ولكنه كان يوافق موافقة ضمنية على التقارير القاسية التي يقدمها عمدة أنجير Angers وأسقف مندى Mende لمجلس فينا ( ١٣١١ ) عن أخلاق رجال الدين وإصلاح الكنيسة . وكان هو نفسه يحيا حياة مقتصدّة طاهرة ، ويلتزم أسباب التقوى في غير تظاهر ولا مباهاة ، وحى أرنلد القلانوثي Arnold of Villanova الطيب العظيم من الاضطهاد لخروجه على أصول الدين القويم ، وأعاد تنظيم الدراسات الدينية في جامعة منلييه على أساس النصوص اليونانية والعربية ، وحاول أن ينشئ كراسي للغات العبرية ، والسريانية ، والعربية في الجامعات - وإن لم يفلح في هذه المحاولة ؛ وكان مما ضاعف متاعبه أن أصيب بمرض شديد الألم - يظن أنه ناسور - اضطره إلى تجنب الاختلاط بالناس ، وقضى عليه في عام ١٣١٤ : ولو أنه عاش في بيئة خير من بيئته لكان ممن ازدانت بهم الكنيسة .

وأعقبت موته فترة خلا فيها كرسي البابوية من شاغله ضربت فيها الفوضى أطنابها ، وكشفت عن طبيعة ذلك العصر ومزاجه . وكتب دانتى إلى الكرادلة الطليان يحرضهم على أن يصروا على اختيار بابا إيطالي وعلى إعادة مقره إلى رومة ، ولكن عدد الكرادلة الإيطاليين لم يكن يتجاوز ستة ،

فلما انعقد المجمع المقدس في حجرة مقفلة(\*) في كرينتراس Carpentras القريبة من أفنيون احتاط به الغوغاء من أهل غسقونية Gascony وأخذوا يصيحون : « الموت للكرادلة الإيطاليين ! » وهوجمت بيوت أولئك الكرادلة ، وأشعل المتجمهرون النار في البناء الذي انعقد فيه المجمع المقدس ، وفتح الكرادلة لأنفسهم ممراً في الجدار الخلفي ، وفروا من الغوغاء والنيران . ولم تبذل أية محاولة أخرى لانتخاب البابا مدة سنتين ، ثم رفع الكرادلة آخر الأمر في اجتماع لهم عقد في ليون بحماية الجنود الفرنسيين إلى كرسي البابوية رجلاً كان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره ، لا يكاد يخطئ من يظن أنه لن يطول به الأجل ، ولكنه قدر له أن يحكم الكنيسة ثمانية عشر عاماً بحجاسة ، وفضاظة ، ونهم لا يشبع ، وإرادة حديدية . وكان يوحنا الثاني والعشرون قد ولد في كوهور Cohors من أعمال جنوبي فرنسا ، وكان أبوه إسكافا ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يختار فيها ابن إسكاف إلى أعلى منصب في العالم المسيحي بفضل الديمقراطية العجيبة القائمة في كنيسة مطلقة في تصرفاتها . وكان إربان الثاني ١٢٦١ - ١٢٦٤ ، قد مهد الطريق لهذا الاختيار ، فقد كان معلماً لأبناء ملك نابلي الفرنسي . وكان يوحنا قد درس القانون المدني والكنسي بحجاسة قربته من قلب الملك ، واختاره بنيفاس الثامن بناء على توصية الملك اسقفما لفريجوس Fréjus ورفعته كلمنت السابع إلى كرسي أفنيون . وأسكت ذهب ربرت ملك نابلي ووطنية الكرادلة الطليان ، وأصبح ابن الإسكاف من أعظم البابوات قوة وأمضاهم عزيزة .

وأظهر يوحنا من الكفايات ما يندر اجتماعه في إنسان : أظهر جدياً في الدراسة ، ومهارة في الإدارة ، وأقامت بابوية أفنيون بزعامته نظاماً

---

( \* ) جرت العادة منذ عام ١٢٧٤ . أن تغلق على الكرادلة الحجرة التي يعقدون فيها المجمع المقدس لاختيار البابا واشتق من هذه العادة اسم المجمع نفسه ( Con-clave ومعناه بمفتاح ) .

بيروقراطياً قديراً ، وإن كان فاسداً مرتشياً ، وجمعت طائفة من الموظفين الملمين بالشئون المالية أدهشت القائمين على وزارات المالية في أوروبا ، وحسدوها على كفايتها في جمع الإيرادات . واشتبك يوحنا في نحو اثني عشر نزاعاً كبيراً تطلب منه الأموال ، فحذا حذو سلفه في بيع المناصب الكهنوتية ، ولكنه كان يبيعها دون حياء . واستطاع ابن بلدة كوهور المصرفية بعدة أساليب مختلفة أن يملأ خزانة البابوية بالمال حتى كان فيها حين وفاته ١٨,٠٠٠,٠٠٠ فلورين ذهباً ( ٤٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ) وما قيمته سبعة ملايين من صفائح الذهب والجواهر (٢) . وكانت حجته في جمع هذه الأموال أن البابوية قد فقدت كثيراً من أموالها المستمدة من إيطاليا ، وأن عليها أن تنشئ وظائفها ، وموظفيها ، وخدامها ، من جديد ، ويبدو أن يوحنا كان يشعر أن خير طريقة يخدم بها الله هي أن يضم إله المال إلى جانبه ، وكانت عاداته الشخصية تنزع إلى النقشف والزهد في الطعام والشراب .

وكان مع هذا كله يناصر العلوم ، وأسهم في إنشاء مدارس للطب في بروجيا وكوهور ، وأعان الجامعات ، وأنشأ كلية لدراسة اللغة اللاتينية في أرمينية ، وشجع دراسة اللغات الشرقية ، ومحارب الكيمياء القديمة الزائفة والسحر ، وكان يقضى الأيام والليالي في الدراسات العلمية ، ونجم حياته رجل دين متهماً بالخروج عليه . ولعل الذي دعا يوحنا أن ينشر على الناس أن إنساناً ما - حتى أم الله نفسها - لا يستطيع أن يرقى إلى مرتبة « الرومي السعيدة » إلا في يوم الحساب ، لعل الذي دُعا إلى هذا هو رغبته في أن يقاوم انتشار نوع من التصوف يدعى الآخذون به الاتصال المباشر بالله ، وقامت عليه ثورة بين من يدعون العلم بشئون الدار الآخرة ، ونددت جامعة باريس بآراء البابا ، وأعلن مجلس مقدس اجتمع في فنسن Vincenne أنها مخالفة للدين ، وأمره فليپ السادس ملك فرنسا أن يعود في آرائه الدينية إلى الصراط المستقيم (٤) ، ولكن المعمر الداهية الذي كان وقتئذ قد

بلغ سن التسعين أفسد عليهم جميعاً أمرهم بأن مات في عام ١٣٣٤ ؛  
وكان الذى خلف يوحنا رجلا لطيف المزاج . كان بندكت الثانى عشر  
ابن خباز ، حاول أن يكون مسيحياً وبابا معاً ، وقاوم إغراء توزيع  
المناصب الكنسية على أقاربه ، ونال شرف عداة الناس له بأن اختار لهذه  
المناصب الأكفاء الجديرين بها ، لا من يشترونها بالمال ، وقطع دابر  
الرشوة والفساد فى جميع فروع الإدارة الكنسية ؛ وكسب عداة الرهبان  
المتسولين بدعوتهم إلى إصلاح طوائفهم ، ولم تعرف عنه القسوة أو إراقة  
الدماء فى حرب ، ولهذا ابتهجت جميع قوى الفساد لموته المبكر فى  
عام ١٣٤٢ .

وانحدر كلمنت السادس من بيت شريف فى ليموزن Limousin ؛  
وقد ألف الترف ، والمرح ، والفنون ، ولم يكن يستطيع أن يفهم لم  
يكون البابا جادا صارما إذا كانت خزائن البابوية عامرة بالمال ، وكاد  
كل من جاءه يطلب وظيفة أن يناها ، لأنه كان يقول إن أحدا يجب  
ألا يخرج من عنده غير راض ، وأعلن فى وقت ما أن كل رجل من  
رجال الدين يفد إليه فى خلال شهرين سينال نصيبا من رفاة ، ويقدر  
شاهد عيان عدد من وفدوا عليه بمائة ألف (٥) . وأجزل العطاء للفنانين  
والشعراء ، واحتفظ باسطبل من الجياد الكريمة يضارع أكبر اسطبل  
آخر فى العالم المسيحي ، وأجاز للنساء أن يدخلن البلاط البابوى واستمتع  
بمفاتهن . واختلط بهن اختلاط العشاق الفرنسيين وبلغ من اتصال كوننة  
تورن Turenne به أن كانت تبيع المناصب الكنسية جهارا لانتخسى فى  
ذلك لومة لائم (٦) . وترامت طيبة كلمنت إلى أهل رومة فبعثوا إليه يرجونه  
أن يقيم فى بلدهم ، ولم ير الخير فى هذا ولكنه ترضاهم بأن أعلن أن العيد  
الذى قرر بنيفاس الثامن فى عام ١٣٠٠ أن يقام فى كل مائة عام يجب  
أن يقام كل خمسين عاما . وابتهجت رومة حين سمعت هذا الخبر ،

ونخلعت ريندسو ، وأعدت نخسوعها السياسي للبابوية .

وأصبحت أفنيون في عهد كلمنت السادس الحاضرة الدينية للعالم اللاتيني ، وكذلك حاضرة سياسته ، وثقافته ، وملذاته ، وفساده . واتخذت الأداة الإدارية للكنيسة وقتئذ صورتها الواضحة المحددة ، فكان لها مجلس رسولى ( Camera apostolica ) يشرف على شئونها المالية ، يرأسه حاجب بابوى ( Camerarius ) لا يعلو عليه فى المنزلة إلا البابا نفسه ؛ ثم ديوان التوقيعات ( Cancelleria ) وله سبعة دوائر يديرها كرددنال نائب عن البابا ويشرف على مراسلات الكرس البابوى الكثيرة المعقدة ، ثم مجلس القضاء البابوى المكون من رجال الدين وغير رجال الدين المتصلعين فى قانون الكنيسة ، ويشمل أيضاً مجمع الكرادلة - المكون من البابا وكرادته والذى كان بمثابة محكمة استئناف ؛ ثم مجلس التوبة الرسولى - وهو هيئة من رجال الدين تنظر فى شئون الزواج ، والحرمات من خطيرة الدين . واللعنة ، ويستمع إلى اعترافات من يطلبون الغفران البابوى .

وأراد بندكت الثانى عشر أن يوجد مسكناً للبابا وأعوانه ، ولتلك الوزارات ، والهيئات ، والموظفين ، والخدم ، فبدأ بتشييد قصر البابوات ، وطائفة من الأبنية القوطية الطراز - تشمل حجرات للنوم ، وأهراء للمجالس ، وأماكن للصلاة ، ومكاتب - وتضم فناءين كبيرين ، وتحيط بها أسوار قوية منيعة ، يوحى ارتفاعها ، وسماكتها ، وضخامة أبراجها ، بأن البابوات إذا حوصروا لا يعتمدون فى الدفاع عن أنفسهم على سعة من السماء ، وأتم إرباب الخامس هذا البناء الضخم . ودعا بندكت الثانى عشر چيتو إلى القدوم لتزيين القصر والكنيسة الملاصقة له . واعتزم چيتو أن يجيب طلبه ، ولكن المنية عاجلته ؛ فاستدعى سيمون مارتينى من سينا ، وأنشأ فهما المظلمات التى محيت الآن والتي بلغها فن التصوير فى أفنيون ذروة مجده . واجتمع حول هذا القصر ، فى قصور أخرى أقل منه شأنه ، وبيوت كبيرة وصغيرة ، وأكواخ حقيرة ، عدد

كبير من رجال الدين ، والمبعوثين ، والمحامين ، والتجار ، والفنانين ، والشعراء ، والخدم ، والجنود والمتسولين ، والعاشرات على اختلاف طبقاتهن من المحظيات المثقفات إلى عاهرات الحانات : وسكن هنا لأول مرة أساقفة الطائفة غير المؤمنة الذين عينوا في المراكز التي آلت إلى غير المسيحيين .

وفي وسعنا نحن الذين اعتدنا الضخامة في كل شيء أن نتصور مقدار المال الذي لابد منه لإقامة هذا الصرح الضخم وكل ما يحيط به : لقد كاد عدد من موارد الثروة ينضب معينه : فكانت إيطاليا بعد أن غادرها البابوات لا تكاد ترسل إليهم شيئاً ؛ واقتصرت ألمانيا التي شجر النزاع بينها وبين يوحنا الثاني والعشرين على إرسال نصف الخراج الذي اعتادت أن تسلمه ، وأما فرنسا التي كادت البابوية تصبح أسيرة لها تحت رخمها فقد خصت جزءاً كبيراً من إيرادات الكنيسة الفرنسية بالأغراض الدنيوية ، واستدان المبالغ الطائلة من البابوية لتمويلها حرب مائة السنين ، وفرضت إنجلترا أشد القيود على تسرب الأموال إلى كنيسة كانت في واقع الأمر حليفة لفرنسا ؛ واضطر بابوات أفينيون كي يواجهوا هذا الموقف إلى أن يستغلوا كل مورد من موارد الثروة مهما يكن ضئيلاً ، وفرضت على كل أسقف أو رئيس دير ، سواء كان معيناً من قبل البابا أو أي أمير زمني ، أن ينزل لمحاكمة الكرسي البابوي عن ثلاث إيراده لمدة سنة نظير تعيينه في منصبه ، وأن يقدم هبات أخرى باهظة إلى الوسطاء الذين أيدوا ترشجه لمنصبه ؛ فإذا ما أصبح رئيس أساقفة كان عليه أن يؤدي مبلغاً كبيراً من المال ثمناً لصلبان الأسقفية - وهي منطقة من الصوف الأبيض يلبسها فوق الملحقة لتكون شعاراً لمنصبه ؛ فإذا ما اختير بابا جديد أرسل أصحاب كل مرتبة ، وكل منصب من مراتب الكنيسة ومناصبها دخلهم كله مدة عام ، ثم تابعوا بعد ذلك إرسال عشر إيرادهم كل عام ؛ وكان ينتظر منهم فوق ذلك أن يرسلوا له تبرعات أخرى من آن إلى آن . وإذا مات كردنال ،

أو كبير أساقفة ، أو أسقف ، أو رئيس دير عادت أملاكه الشخصية وأمواله المنقولة إلى البابوية ، وفي الفترة التي يظل فيها المنصب شاغرا بين موت شاغله القديم وتعيين صاحبه الجديد كان البابوات يستولون على المرتب المقرر لهذا المنصب ، ويؤدون نفقاته ، وكان البابوات يهتمون بأنهم يتعمدون إطالة هذه الفترة . وكان كل من يعين في منصب من مناصب الكنيسة يعد مسئولاً عن الرسوم التي لم يؤدها سلفه . ولما كان الأساقفة ورؤساء الأديرة في كثير من الأحيان سادة إقطاعيين يمتلكون ضياعاً قطعها إليهم الملوك ، فقد كان عليهم أن يؤدوا لهم الخراج ، ويمدوهم بالجنود ، ولهذا كان الكثيرون منهم يواجهون صعاباً جمة في الوفاء بالتزاماتهم الدنيوية والدينية ، وإذا كانت مطالب البابوية أشد صرامة من مطالب الدولة ، فإننا نجد رجال الدين في بعض الأحيان يؤيدون الملوك ضد البابوات ، وكان بابوات أفنيون يتجاهلون تجاهلاً تاماً ما كان لمجالس الكنائس والأديرة من حقوق قديمة في اختيار الأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكانت هذه النصوص القديمة سبباً آخر من أسباب غضب رجال الدين . وكانت القضايا التي تنظر فيها جهات القضاء البابوية تتطلب في العادة الاستعانة بالمحاميين ، وهي استعانة كبيرة النفقة ، وكان على هؤلاء المحامين أن يؤدوا أجراً باهظاً في كل عام نظير حصولهم على ترخيص بالمرافعة أمام المحاكم البابوية . وإذا ما أصدر المجلس البابوي حكماً أياً كان نوعه أو أدى خدمة ما لأي إنسان ، فقد ينتظر ممن يفيد من هذا الحكم أو تلك الخدمة أن يقدم هدية للبابوية اعترافاً منه بما عاد عليه من نفع ، وحتى الإذن لشخص ما بأن يرسم قساً كان يبتاع بالمال . وكانت الحكومات الزمنية في أوروبا تنتظر بعين الخوف والسخط إلى أداة البابوات المالية (٧) .

وثار الاحتجاج من كل ناحية ، ولم يكن أقلها عنفاً ما جاء من رجال

الكنيسة أنفسهم . من ذلك ما كتبه الخبر الأسباني ألفارو پلايو Alvaro Pelayo

هو من أنصار البابوية الموالين لها في رسالة في رثاء الكنيسة يظهر فيها أسفه - ويقول « كلما دخلت حجرات رجال الدين في البلاط البابوي ، رأيت السماسرة والقساوسة منهمكين في وزن المال وعده وهو مكسب أكدها أسفه أمامهم . . . . إن الذئاب هي المسيطرة على الكنيسة ، وهي تطعم من دماء « القطعان المسيحية » (٨) . وهال الكردينال نابليون أرسيني Napoleone Orsini أن يجد جميع أسقفيات إيطاليا موضعاً للمبادلة أو دسائس الأسر في أيام كلمنت الخامس . وكتب إدورد الثالث ملك إنجلترا ، وكان هو نفسه بارعاً في فرض الضرائب - كتب يذكر كلمنت السادس أن « خليفة الرسل إنما جاء ليقود خراف الرب إلى المرعى لا ليجزها » (٩) ، وسن البرلمان الإنجليزي عدة قوانين يجد بها من حق البابوات في فرض الضرائب في إنجلترا . وكان الحياة البابويون في ألمانيا يطاردون ، ويقبض عليهم ، ويسجنون ، وتبتر أطرافهم ويشنقون في بعض الأحيان . وأقسم قساوسة كولوني ، وبن ، وأكسانتن Xanten ، ومينز في عام ١٣٧٢ ألا يؤدوا العشور التي طلبها إليهم جريجوري الحادي عشر . وفي فرنسا حل الخراب بكثير من أملاك الكنيسة بسبب ما أصابها من كوارث الحرب ، والموت الأسود ، ونهب اللصوص وقطاع الطريق ، وما كان يفرضه عليها جباة البابا ، وهجر كثير من الأساقفة أبرشياتهم .

ورد البابوات على هذه الشكاوى بقولهم إن الإدارة الكنسية تتطلب هذه الأموال كلها ، وإن العمال الصالحين الذين لا يرتشون يندر وجودهم ، وإنهم هم أنفسهم يخوضون بحارا من المتاعب . وأكبر الظن أن كلمنت السادس حين أقرض فليب السادس ملك فرنسا ٥٩٢.٠٠٠ فلورين ذهبي ، ( ١٤٨٠.٠٠٠ دولار ) والملك چون الثاني ٣٥١٧.٠٠٠ فلورين أخرى ( أي ٨٧٩٢٥.٠٠٠ دولار ) إنما فعل ذلك مرغماً (١٠) . واحتاج البابوات نفقات طائلة لاسترداد الولايات البابوية التي فقدوها

في إيطاليا ، ولذلك كانت الخزانة البابوية تعاني عجزا دائما في إيراداتها على الرغم من جميع ما فرضته من الضرائب . وأنقذ البابا يوحنا الثاني عشر تلك الخزانة بأن أدى إليها ٤٤٠.٠٠٠ فلورين من أمواله الخاصة ، وباع إنوسنت السادس صحافه الفضية ، وجواهره ، وتحفه الفنية ، واضطر إربان الخامس أن يقترض ٣٠٠.٠٠٠ فلورين من كرادلته ، وكان جريجورى الحادى عشر عند موته مدينا بمائة وعشرين ألف فرنك .

ويقول الناقدون إن عجز مالية البابوات لا يرجع إلى النفقات المشروعة بل يرجع إلى ضروب البذخ التي كانت سائدة في بلاط البابوات وصنائعهم فقد كان كلمنت السادس مثلا محوطا بأقاربه من الذكور والإناث يرتدون أئمن الثياب والفراء ؛ وبطائفة من الفرسان والأتباع والجنود المسلحين ، والقساوسة ، والحجاب ، ورجال التشریفات ، والموسيقين ، والشعراء ، والفنانين ، والأطباء ، والعلماء . والحياطين ، والفلاسفة ، والطباخين ممن كانوا موضع حسد الملوك . وكان هؤلاء جميعا البالغ عددهم قرابة أوبعائة شخص يطعمون ، ويكفون ، ويسكنون ، ويتقاضون مرتبات من بابا مولع بالإسراف لم يعرف في يوم من الأيام ماذا يتطلبه جمع المال . وكان كلمنت يرى نفسه حاكما من واجبه أن يقذف الرعب في قلوب رعاياه ، وأن يؤثر في نفوس السفراء بضروب « الاستهلاك البادى للعيان » كما يفعل الملوك . وكان لابد للكرادلة أيضا ، وهم مجلس الدولة الملكى وأمراء الكنيسة في الوقت عينه ، أن يكون لهم ما يليق بمكانتهم وسلطانهم من مظاهر ، فكانت حاشيتهم ، وبطانتهم ، ومآديهم حديث أهل المدينة . ولعل الكردينال برنار الجرفيزى Bernard of Garves قد جاوز في التنعم والأبهة الحد المعقول حين استأجر واحدا وخمسين مسكنا تقيم فيها حاشيته ، وفعل فعله الكردينال بطرس البنهاكى Peter of Banhac الذى كان في خمسة من اسطبلاته العشرة تسعة وثلاثون حصانا من أحسن

طراز منعمة مستريحة : ونهج هذا النهج عينه الأساقفة أنفسهم ، وكانت لهم هم أيضاً قصور فخمة مليئة بالمهرجين ، والبزاة ، والكلاب ، على الرغم من احتجاج المجالس المقدسة في الأقاليم .

وتخلقت أفتيون وقتلوا بأخلاق حاشية الملوك وآدابها : فانتشرت فيها ضروب الخسة والسفالة ، يشهد بذلك ما كتبه جويوم دوران Guillaume Durand أسقف مندى Mende إلى مجلس فينا يقول :

قد يكون إصلاح الكنيسة كلها مستطاعاً إذا بدأت كنيسة رومة تطهر نفسها مما فيها من قدوة سيئة ... تصم رجالها أشنع وصمة وتتسرب عدواها إلى الناس كلهم . . . ذلك أن كنيسة الله المقدسة ، وخاصة كنيسة رومة أقدسها جميعاً ، قد ساءت سمعتها . . . في كل مكان ، وأخذ الناس جميعاً يصيحون ويذيعون في الخارج أن كل من تضمهم إلى صدرها من أعلاهم إلى أقلهم شأناً قد امتلأت قلوبهم طمعا . . . ومن الأمور الواضحة التي تلو كها الألسنة أن جميع المسيحيين يتخذون رجال الدين أسوأ قدوة لهم في الجشع ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون من موائد أشد ترفاً وأعظم فخامة ، وأكثر صحافاً من موائد الأمراء والملوك (١١) .

واستندت بترارك ، وهو من دانت له أساليب البلاغة ، كل ما في معاجم اللغة من ألفاظ السباب التي وصم بها أفتيون فقال عنها إنها :

بابل العاصية ، بحجم الأرض ، بالوعة الرذيلة ، ومستودع أقدار العالم . لا تجد فيها إيماناً ، ولا إحساناً ، ولا ديناً ، ولا خوفاً من الله . . . لقد تجمعت فيها جميع أقدار العالم ونخبائه . . . ترى كبار السن من رجالها يندفعون غير مباليين إلى أحضان فينوس ؛ لا يباليون بكبر سنهم أو كرامتهم ، أو ما لهم من سلطان ، بل يرتكبون كل عار ، كأن مجدهم كله لا يعتمد على صليب المسيح ، بل يقبوم على المأكل المشرب ، والسكر ، والدعارة . . . فالفسق ، ومضاجعة المحارم ، وهتك الأعراض ، والزنا هي أعظم المباهج الشهوانية لمهازل رؤساء الكنيسة (١٢) .

وليس في مقدورنا أن نغض الطرف عن هذه الشهادة الصادرة من شاهد عيان لم يحد طوال حياته عن طريق الدين ، وإن لم تخل من المبالغة والحقد الشخصي . ومن واجبنا فوق ذلك أن ننقص منها بعض الشيء لصدورها من رجل يبغض أفنيون لأنها اختطفت البابوية من إيطاليا ، وكان يطلب الهبات من بابوات أفنيون ، وينال منها الكثير ، ويطلب المزيد ، رجل رضى أن يعيش مع السفاح فيسكويتي عدو البابوية ، وكان له هو نفسه ولدان غير شرعيين . ولم تكن الأخلاق في رومة ، التي كان پترارك يلح على البابوات في أن يعودوا إليها ، خيراً مما كانت في أفنيون وقتئذ ، إلا أن الفقر كان معواناً على العفة . ولم تتصف القديسة كثيرين السينائية أفنيون بالوضوح الذي وصفها به پترارك ، ولكنها أخبرت جريجورى الحادى عشر أنها إذا جاءت إلى البلاط البابوى كانت « خياشيمها تفتحها روائح الجحيم » (١٣) .

ووجد في هذا الانحلال الأخلاقى بابوات كثيرون خليقون بمنصبهم الرفيع ، يفضلون آداب المسيح على آداب زمانهم . وإذا ذكرنا أنه لم يوجد بين بابوات أفنيون السبعة إلا واحد عاش معيشة اللذة الدنيوية ، وواحد آخر هو يوحنا الثانى والعشرون ، أخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف مهما يكن من شرايته وقسوته ، وآخر هو جريجورى الحادى عشر كان في السلم مضرب المثل في التقوى وسمو الأخلاق وإن كان في الحرب قاسياً لا يرحم ، وأن ثلاثة - بندكت الثانى عشر ، وإنوسنت السادس ، وإربان الخامس يكادون يكونون في حياتهم قديسين أظهاراً - إذا ذكرنا هذا لم يكن من حقنا أن نلقى تبعة جميع الرذائل التي تجمعت في أفنيون البابوية على كاهل البابوات . لقد كانت الثروة سبب هذه الرذائل ، وقد كانت لها هي هذه النتائج بعينها في أماكن أخرى - في رومة أيام نيرون ، ورومة أيام ليو العاشر ، وباريس في عهد لويس الرابع عشر ، ونيويورك وتشكاجو في هذه الأيام ، وكما أننا نجد الكثرة الغالبة من رجال هاتين المدينتين الأخيرتين

ونسائهما تعيش عيشة صالحة طيبة ، أو ترتكب ما ترتكبه من الآثام في اعتدال ، فإن من حقنا أن نفترض أن المحامي المعوج ، والقاضي غير النزيب ، والكردنال الذي يريد الدنيا ، والقس الذي لا يراعى واجبات مهنته ، كانوا شواذاً يبرزون في وضوح أكثر مما يبرز أمثالهم في أى مكان آخر ، لأنه كان يشرف عليهم ويصفح عنهم في بعض الأحيان كرسى الرسول . غير أن هذه الفصائح كان فيها من الحقيقة ما يكفي إذا ضم إلى فرار البابوات من رومة للقضاء على منزلة الكنيسة وسلطانها : وكانما أراد بابوات أفنيون أن يحققوا ظن الناس فيهم ، بأنهم لم يعودوا كما كانوا قوة عالمية ، بل أصبحوا آلات طبيعة في يد فرنسا ، فاختاروا ١١٣ كرنالا فرنسياً لمجمع الكرادلة المؤلف من ١٣٤ كرنالا (١٤) . وكان هذا من أسباب تغاضي الحكومة الإنجليزية عن هجمات ويكلف Wyclif القاسية على البابوية . كذلك رفض الناخبون الألمان بعد ذلك الوقت كل تدخل من جانب البابوات في انتخاب ملوكهم وأباطرتهم ، ولما أن رفض رؤساء الأديرة في أسقفية كولوني عام ١٣٧٢ أن يؤدوا العشور إلى البابا جريجورى الحادى عشر ، أعلنوا جهرة أن الكرسى الرسولى قد انحط إلى الدرك الأسفل من الاحتقار ، حتى بدا أن المذهب الكاثوليكي في تلك الديار مهدد بأشد الأخطار . أما غير رجال الدين فهم في حديثهم عن الكنيسة يظهرون لها ضروب الاحتقار ، لأنها تخلت عما تعودته في الأيام الماضية ، فلا تكاد تختار رسلها من الواعظين أو المصلحين ، بل تختارهم من الرجال المتباهين ، الماكرين ، الأنانيين ، الشرهين . وقد بلغت الحال من سوء درجة يندر معها أن تجد مسيحيين إلا بالاسم « (١٥) » .

لقد كان الأسر البابلى للبابوات في أفنيون ، وما تلاه من انقسام في البابوية ، هو الذى مهد السبيل إلى الإصلاح الدينى ، وكانت عودة البابوات إلى إيطاليا هى التى أرجعت لهم مكانتهم وأجلت الكارثة التى حلت بهم قرناً من الزمان :

## الفصل الثاني

### الطريق إلى رومة

وكانت منزلة الكنيسة في إيطاليا أقل منها في أي بلد آخر . وكان من أسباب ذلك أن بندكت الثاني عشر أراد أن يخضع شوكة لويس صاحب بافاريا الثائر فأيد في عام ١٣٤٢ جميع السلطات التي انتحلها طغاة المدن للمباردية متحدية بذلك دعاوى الإمبراطورية ؛ وثار لويس لهذا العمل فأيد من قبل الإمبراطورية الطغاة الذين اغتصبوا الولايات البابوية (١٦) ، وسخرت ميلان من البابوات علانية ، ولما أن أرسل إليها إربان الخامس في عام ١٣٦٢ مندوبين يحملان قرارات الحرمان للشكوتى أرغهم برنابو Bernabo على أن يأكلوا القرارات بما فيها من رقوق ، وخيوط حريرية ، وأختام من الرصاص (١٧) ، وكانت صقلية منذ عام ١٢٨٢ قد ظلت تعادى البابوات جبهة .

وجهاز كلمنت السادس جيشاً ليسترد به الولايات البابوية ، ولكن خليفته إنوسنت السادس هو الذي ردها إلى طاعته مؤقتاً : ويكاد إنوسنت هذا أن يكون نموذجاً طيباً للبابوات . ذلك أنه بعد أن حبا عددا قليلا من أهله ببعض المناصب اعزم أن يقف سبيل المحسوبية الكهنوتية والفساد ، وقضى على مظاهر الترف والفخفة والإسراف في البلاط البابوى ، وأقصى الجيش العرمرم من الخدم الذين كانوا يحيطون بكلمنت السادس ، وطرده عدد الجرم من طلاب المناصب ، وأمر كل قس أن يقيم في مقر عمله ، وعاش هو نفسه معيشة الإستقامة والاعتدال . وكان يعتقد أن السبيل الوحيد لإعادة سلطان الكنيسة هي تحريرها من سلطان فرنسا ، وعودة البابوية إلى إيطاليا . ولكن الكنيسة إذا خرجت من فرنسا يتعذر عليها

الاحتفاظ بكيانها بغير الإيراد الذي كان يصل إليها من الولايات البابوية به  
ومع أن إنوسنت نفسه رجل سلم فقد رأى أن لا سبيل لاستعادة تلك  
الولايات إلا الحرب .

وعهد بهذه المهمة إلى رجل أوثق إيمان الأسبان وحماسهم ، ونشاط  
الدمنيك ، وفروسية عطاء قشتالة . ذلك هو جيل ألفارز كارلوه البرنوز  
Gil Alvarez Carillo de Albornoz . وكان جيل هذا جندياً في جيش  
ألفنسو الحادي عشر صاحب قشتالة ، ولم ينقطع عن الحرب بعد أن صار  
كبير أساقفة طليطلة ؛ والآن وقد أصبح الكردنال إجديو دالبرنوز Egjdio  
d'Albornoz فقد صار قائداً بارعاً . وقد أقنع جمهورية فلورنس - وكانت  
وقتئذ تخشى الطغاة وقطاع الطريق الذين كانوا يخيطنون بها - أقنعها بأن  
تمده بما يلزمه من المال لتنظيم جيش . وأفلح بالمفاوضات البارعة ، الشريفة  
رغم براعتها ، لا بالقوة ، أن يخلع الطغاة الصغار الذين اغتصبوا الولايات  
البابوية طاغية بعد طاغية ، ووضع لهذه الولايات « الدساتير الإيجابية ،  
( ١٣٥٧ ) التي ظلت قانونها الأساسي حتى القرن التاسع عشر ، والتي  
كانت حلا وسطا عمليا بين الحكم الذاتي والولاء للبابوية . وتغلب على جون  
هوكوود John Hawkwood المغامر الإنجليزي الذائع الصيت ، وأسره ،  
وقذف في قلوب زعماء عصابات المغامرين الخوف من مندوب البابا إن  
لم يكن من الله ؛ واستعاد بولونيا من رئيس أساقفتها المتمرد ، وأقنع أمراء  
ميلان أن يعقدوا الصلح مع الكنيسة ، وتهيأت بذلك السبيل لعودة  
البابوات إلى إيطاليا .

وواصل إربان الخامس سياسة إنوسنت السادس الصارمة الإصلاحية ؛  
وبذل كل ما في وسعه لإعادة النظام والأمانة إلى رجال الدين وإلى البلاط  
البابوي ، وقاوم شرف الكرادلة ، وقضى على خداع المحامين ، وجشع  
المرابين ، وابتزازهم أموال المدنيين ، وعاقب من يتجرون بالمقدسات

وبالمناصب الكهنوتية ، وضم إلى خدمته رجالاً من ذوى الأخلاق الممتازة والعقول الراجحة ، وأنفق من ماله الخاص على ألف طالب في الجامعات ، وأنشأ كلية جديدة في منبلييه ، وأمد بالمال كثيرين من العلماء ، وأراد أن يتوج أعماله البابوية فاعتزم أن يعيد مقرها إلى رومة . وارتاع الكرادلة حين علموا بهذه النية ، لأن الكثيرين منهم كانت أصولهم ومواضع حبهيم في فرنسا ، وكانوا مكروهين في إيطاليا ، وتوسلوا إليه ألا يلقى مطالب القديسة كترين أو إلى بلاغة پترارك . وشرح لهم إربان الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في فرنسا - التي كان مليكها أسيراً في إنجلترا ، وجيوشها محطمة ، والإنجليز يستولون على أقاليمها الشمالية ، ويقتربون يوماً بعد يوم من أفنيون ؛ ترى ماذا تعمل إنجلترا إذا انتصرت البابوية التي كانت تخدم فرنسا وتمد ما بالمال ؟

ونفذ البابا ما اعتزمه فأبحر من مرسيليا في اليوم الثلاثين من إبريل عام ١٣٦٧ تجرسه عدة سفن شراعية إيطالية مفعمة قلوب من فيها بهجة ؛ ودخل رومة في السادس عشر من شهر أكتوبر وسط مظاهر الترحيب الذي وصل إلى عنان السماء ، من العامة ، ورجال الدين ، والأشراف ؛ وأمسك الأمراء الإيطاليون بزمام البغل الأبيض الذي كان يمتطيه ، وانطلق لسان پترارك بالشكر للبابا الفرنسي الذي جرؤ على الإقامة في إيطاليا . وكانت رومة وقتئذ مقفرة وإن كانت سعيدة : أفقرها انفصالها الطويل الأمد عن البابوية ، وهجر المصلون نصف كنائسها وتهدمت ، وتخربت كنيسة القديس بولس ، وكانت كنيسة القديس بطرس توشك أن تنهار في أية لحظة ، وقصر لاتيران قد دمرته النار منذ عهد قريب ، والقصور لا تقل تهدماً عن المساكن الصغيرة ، وانتشرت المستنقعات فحات محل البيوت ، وتكدست الأقدار في الشوارع والميادين (١٨) . وأصدر إربان الأوامر ببناء القصور البابوية ورصد لها الأموال . ولم يطق صيراً علي منظر رومة ،

بجائزته مسكنه في مونتى فياسكونى Montefiascone ولكن ذكريات أفنيون وترفها وفرنسا المحبوبة أقضت مضجعه ونغصت عليه حياته . وترامت أنباء ترده إلى پترارك ، فأخذ يحثه على أن يصر على ما عقد عليه نيته ، وتنبأ القديس بردجت St Bridget السويدى بأن البابا سيموت من فوره إذا غادر إيطاليا ، وعمل الإمبراطور شارل الرابع على تقوية عزيمته ، فأيد استعادة البابا لإيطاليا الوسطى ، وجاء خاشعا إلى رومة ( ١٣٦٨ ) ، ليقود جواد البابا من كنيسة القديس إنجيلو إلى كنيسة الرسول بطرس ، ووقف على خدمته أثناء القداس . وتوجه البابا في حفل نخيل إلى الجمع المحتشد المبهج أنه يحسم النزاع القديم بين الإمبراطورية والبابوية . فلما كان اليوم الخامس من سبتمبر عام ١٣٧٠ أقلع إربان إلى مرسيليا ، وأعله بعمله هذا قد خضع إلى رغبة كرادلته الفرنسيين ، وادعى أنه يريد إعادة السلام بين إنجلترا وفرنسا . ووصل في السابع والعشرين من هذا الشهر نفسه إلى أفنيون حيث وافته المنية في التاسع عشر من ديسمبر ، وهو يرتدى ثياب راهب بندكتى ، ويرقد على أريكة حقيرة ، وكان قد أمر بأن يسمح لكل من شاء بالدخول عليه ، حتى يستطيع الناس جميعاً أن يروا أن عظمة أجل الناس مقاما ليست إلا بهرجا كاذبا قصير الأمد .

وكان كلمنت السادس البابا الظريف قد عين جريجورى الحادى عشر ابن أخيه كوردنالا وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، ورسم قسا فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٣٧٠ ، ثم اختير بابا فى الثلاثين من ديسمبر فى سن التاسعة والثلاثين . وكان غزير العلم ، مولعا بشيرون ، وقد جعلته الأقدار رجل حرب وكفاح ، وقضى مدة بابويته فى إخماد الثورات العنيفة . ذلك أن إربان الخامس كان يخشى ألا يثق البابا الفرنسى بالإيطاليين ، فاختار عدداً كبيراً من الفرنسيين مندوبين عنه لحكم الولايات البابوية . ووجد هؤلاء الحكام أنفسهم فى بيئة معادية لهم فشادوا الحصون لمقاومة الشعب ، وجاءوا بأعوان لهم كثيرين من الفرنسيين ، وفرضوا

خرائب باهظة ، وآثروا الغطرسية على الكياسة والدهاء : وحدث أن أخذ ابن أخ للمندوب البابوي في بروجيا يطارده امرأة متزوجة مطاردة بلغ من عنفها أن سقطت المرأة من نافذة وقضت نحبها وهي تحاول الفرار منه . ولما جاء وفد إلى المندوب البابوي يطلب إليه عقاب ابن أخيه رد عليه بقوله : « علام هذه الجلبة كلها ؟ هل تظنون أن الفرنسي خصي ؟ » (٢٠) . وأثار مندوبو البابا بوسائل كثيرة متنوعة كراهية الشعب إلى حد دفع كثيراً من الولايات إلى الانتفاض عليهم في عام ١٣٧٥ واحدة بعد واحدة . ورفعت القديسة كترين صوتها نائبة عن إيطاليا فألحت على جريجورى أن يعزل أولئك « الرعاة الأشرار الذين يسممون حديقة الكنيسة ويعيشون فيها فساداً » (٢١) : وتزعمت فلورنس هذه الحركة وهي التي كانت في العادة حليفة البابوية ، ونشرت راية حمراء كتبت عليها بأحرف ذهبية كلمة الحرية ، فلم يحل عام ١٣٧٦ حتى لم يبق موالياً للبابا من مدن إيطاليا إلا واحدة بعد أن كان عدد المدن التي تعترف للبابا بزعامته المدنية والروحية أربعاً وستين مدينة في عام ١٣٧٥ ، ونخيل إلى العالم أن جميع ما عمله ألرنوز قد ذهب أدراج الرياح ، وأن البابوية قد خسرت مرة أخرى جميع إيطاليا الوسطى :

واتهم جريجورى ، بإيعاز الكرادلة الفرنسيين ، أهل فلورنس بأنهم يتزعمون الثورة عليه ، وأمرهم بالخضوع إلى المندوب البابوي ، فلما عصوا أمره حرمهم من الدين ، ومنع إقامة الخدمات الدينية في مدينتهم ، وأصدر مرسوماً يعلن فيه أن جميع الفلورنسيين خارجون على القانون ، وأحل لأى إنسان فى أى مكان أن يستولى على أملاكهم ويتخذهم أرقاء . وحقاً خطر الانهيار بصرح التجارة والمال الفلورنسى كله ، واعتقلت إنجلترا وفرنسا من فورهما من فيهما من الفلورنسيين واستولتا على أملاكهم ، وكان رد فلورنس على هذا أن صادرت جميع أملاك الكنيسة

الموجودة في أراضيها ، وهدمت مباني محكمة التفتيش ، وأغلقت أبواب المحاكم البابوية ، وزجت في السجن ، وشنقت في بعض الأحيان ، القساوسة المعاندين ، وبعثت بندااء إلى أهل رومة تدعوهم فيه أن ينضموا إلى الثورة ، ويقضوا على جميع ما للكنيسة في إيطاليا من ساطة زمنية . وبينما كانت رومة لا تزال تتردد في الأمر ، إذ قطع جريجورى لزعمائها وعدا صريحا بأن يعيد البابوية إلى رومة إذا ظلت موالية له . وقبل أهل رومة هذا الوعد واعتصموا بالسلم .

وكان البابا في خلال ذلك قد سير إلى إيطاليا قوة من الجنود البريطانيين المرتزقين الجفاة بقيادة « الكردنال المندوب الباهوى ربرت من أهل جنيفا » (٢٢) . ونحاض ربرت نعمار الحرب بوحشية لا يكاد يصدقها عاقل ، من ذلك أنه لما استولى على كازينا Casena بعد أن قطع على نفسه عهدا بالعفو عن أهلها قتل بالسيف كل من كان فيها من رجال ونساء وأطفال (٢٣) . وكان چون هو كودك يقود جنود المرتزقة في خدمة الكنيسة ، فذبح هو الآخر في فائندسا Faenza أربعة آلاف من أهلها لارتيابه في أن البلدة تريد الانضمام إلى الثورة . وارتاعت القديسة كاترين السينائية من هذه الأعمال الوحشية ، ومن مصادرة الأملاك من الجانبين ، ومن انقطاع الخدمات الدينية في جزء كبير من إيطاليا ، فكتبت إلى جريجورى تقول :

نعم إن عليك أن تسترد الأملاك التي خسرتها الكنيسة ، ولكن عليك أكثر من هذا أن تسترد جميع الخراف التي هي كنز الكنيسة الحقيقي والتي تحمل بها الفاقة بحق إذا خسرتها . . . عليك أن تضرب الناس بسلاح الصلاح ، والحب ، والسلم ؛ فإن فعلت كسبت به أكثر مما تكسب بسلاح الحرب . وأنا حين أسأل الله عن خير الطرق لنجاتك ، وإعادة الكنيسة إلى حالها الأولى ، وعودة العالم أجمع ، لا أجد جوابا غير كلمة السلم ! السلم ! فبحق المنقذ المصلوب عد إلى السلم (٢٤) !

ودعتها فلورنس إلى أن تكون مع وفدها المرسل إلى جريجورى ؛  
تقبلت الدعوة ، وسافرت ، وانتهزت هذه الفرصة لتتدد بأخلاق أفنيون ،  
وبلغ من صرامتها في هذا التنديد أن طالب الكثيرون بالقبض عليها ، ولكن  
جريجورى بسط عليها حمايته ، ولم يكن لسفر البعثة نتيجة عاجلة ،  
ولكن جريجورى حين ترمى إليه أن رومة تنضم إلى الثورة إذا لم يعجل  
بالهجرة إليها أقنع من مرسلها ووصل إلى رومة في السابع عشر من يناير  
سنة ١٣٧٧ ، وربما كان من أسباب سفره أنه تأثر بدعوة كثيرين ، ولم  
يرحب بعودته جميع الأهلين لأن نداء فلورنس أثار في هذه المدينة المنحلة  
ذكريات للجمهورية القديمة ، وجاءت النذر إلى جريجورى أن حياته غير  
آمنة في عاصمة العالم المسيحي القديمة . فانتقل منها إلى أناني في شهر مايو .

وكانه الآن قد خضع آخر الأمر إلى رجاء كثيرين ، فتحول من الحب  
إلى الدبلوماسية . وأخذ عماله يشجعون الجماهير في المدن على أن يقبلوا  
حكوماتهم المتمردة . وكانت تلك الجماهير تتوق إلى مصالحة الكنيسة ،  
ووعده جميع المدن التي تعود إلى الولاء له بأن تكون لها حكومة ذاتية تحت  
رياسة نائب عن البابا تختاره هي بنفسها . وقبلت المدن هذه الشروط  
واحدة في إثر واحدة ؛ وانفقت فلورنس مع جريجورى في عام ١٣٧٧  
على أن يحكم برنابو فيكونتي في النزاع القائم بينهما . وأقنع برنابو البابا  
بأن يهبه نصف الغرامة التي قد يفرضها على فلورنس ، فلما وافق على  
ذلك أمر المدينة بأن تؤدي للكرسي المقدس غرامة قدرها ٨٠٠,٠٠٠  
فلورين ( ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ) . ورأيت فلورنس أن حلفاءها قد  
تخلوا عنها فخضع لهذا الأمر وهي كارهة مغضبة ، ولكن البابا إربان  
السادس خفض الغرامة إلى ٢٥٠,٠٠٠ فلورين .

ولم يعيش جريجورى حتى يشهد نصره ، فقد عاد إلى رومة في السابع

من نوفمبر عام ١٣٧٧ ، وكان يعاني آلام المرض حتى وهو في أفنيون ، وتأثر بالشتاء الذي قضاه في إيطاليا الوسطى ، وأحس بدنو أجله ، ونخشي أن يقطع النزاع القائم بين فرنسا وإيطاليا للسيطرة على البابوية أوصال الكنيسة ؛ فأعد العدة في التاسع عشر من مارس عام ١٣٧٨ لاختيار خلفه على الفور ، وتوفي بعد ثمانية أيام من ذلك الوقت وهو يمن إلى أرض فرنسا المحببة .

## الفصل الثالث

### الحياة المسيحية

١٣٠٠ - ١٤٢٤

سرجي إلى باب آخر بحثنا في دين الشعب وأخلاق رجال الدين ،  
ولكننا نلاحظ في هذا الفصل ظاهرتين مختلفتين من ظواهر الحياة المسيحية  
في إيطاليا خلال القرن الرابع عشر هما محكمة التفتيش والقديسون ، والإنصاف  
يقنضينا أن نذكر أن الكثرة الغالبة من المسيحيين كانت تعتقد وقتئذ أن  
الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وأنه هو الذي وضع عقائدها الأساسية ؛ ومن  
ثم فإن أية حركة تقوم للقضاء عليها - أيا كانت الأخطاء التي يرتكبها  
الآدميون الذين يصرفون شئونها - إنما هي خروج على السلطة القدسية  
وخيانته للدولة الزمنية التي كانت الكنيسة درعها الأخلاقي الواقى . وإذا لم  
تثبت هذه الفكرة الأساسية في عقولنا لم نستطع فهم تلك الوحشية التي  
دافعت رجال الدين وغير رجال الدين إلى الاشتراك معا في القضاء على  
دعوة الإلحاد التي أثار عجاجها ( حوالي عام ١٣٠٣ ) دلتشينو النوفاري  
Dolcino of Novara وأخته الحسناء مارجريتا Margherita .

وقد قسم دلتشينو التاريخ ، كما قسمه يواقيم الفلورى Joachim of Flora  
إلى فترات شهدت الفترة الثالثة منه الممتدة من عهد البابا سلفستر الأول  
( ٣١٤ - ٣٣٥ ) إلى ١٢٨٠ فساد الكنيسة بسبب ما كان لها من ثراء  
دنيوى . ويقول دلتشينو إن البابوات جميعا من أيام سلفستر كانوا غير  
مخلصين للمسيح إذا استثنينا منهم سلاستين الخامس Celestine V وكان  
الرهبان بندكت ، وفرانسس ، ودمنيك قد بدأوا محاولات نبيلة لتخليص  
الكنيسة من عبادة المال وإعادتها إلى عبادة الله ، ولكنهم أخفقوا في هذه

المحاولات ، وأضححت البابوية في عهد بنيفاس الثامن هي العاهر التي وصفها سفر الرومي . وتزعم دلثينو طائفة جديدة من الإخوان تدعى «إخوان پارما الرسولين» رفضت سلطان البابوات ، وورثت خليطاً من العقائد عن الباتاريدين Patarines ، والولدنسين Weldenses ، والفرنسيس الروحيين . وكانوا يدعون أنهم يلتزمون العفة المطلقة ، ولكن كل واحد منهم كان يعيش مع امرأة يسميها أخته . وأمر كلمنت الخامس محكمة التفتيش أن تحاكمهم ، ولكنهم رفضوا المثول أمامها ، وسلحوا أنفسهم ، واتخذوا موقفهم في أسفل جبال الألب البيدمنتية . وسيرت محكمة التفتيش عليهم جيشاً ، ونشبت بين الجانبين معارك حامية الوطيس ، وانسحب الإخوان إلى ممرات في الجبال حوصروا فيها حتى نفذ طعامهم ، فأخذوا يأكلون الفئران والكلاب ، والأرانب البرية ، والكلأ ، ثم هوجم معقلهم الجبلي أخيراً ، ونحر ألف منهم قتلى وهم يحاربون ، وحرق منهم عدة آلاف ( ١٢٠٤ ) . ولما سبقت مرجريتا إلى مكان الحرق ، كانت لا تزال رائعة الجمال على الرغم من ذبول جسمها ، وبلغ من جمالها أن عرض عليها رجال من ذوى المكانة أن يتزوجوها إذا تخلت عن إلحادها ، ولكنها رفضت تلك العروض وأكلتها النار على مهل . واستبقى دلثينو وزميل له يدعى لنچينو ليحاكما محاكمة خاصة ، وأركبا عربة طافت بهما فرتشلي Vercelli ، وقطع لحمهم جزءاً فجزءاً بالكلاليب أثناء هذا الموكب ، وانتزعت أطرافهما وأعضاء تناسلهما من جسميهما ثم تركا آخر الأمر ليموتا (٢٦) .

ويلد لنا أن نتحول عن هذه الوحشية إلى ما عكفت عليه المسيحية من بث روح التقوى والصلاح في نفوس الرجال والنساء . ذلك أن القرن الذي شهد ما حل بأفنيون من ضروب المحن والفساد أخرج أيضاً مبشرين أمثال جيوفني دامونتي كرفينو Giovanni da Monte Corvino وأودريك

للبردينوني Oderic of Pordenene اللذين حاولا أن يهديا الهنود والصينيين إلى الدين المسيحي ؛ ولكن الصينيين كما يقول إخباري فرنسي أصروا على اعتقادهم « الخاطئ بأن في وسع أي إنسان أن ينجو وهو في مذهبه (٢٧) » . وكان ما أفاده العالم من هذين المبشرين في علم الجغرافية أكبر مما أفاده منهما في شؤون الدين .

وولدت القديسة كثرين السينائية ، وعاشت ، وماتت في غرفة وضيعة لا يزال يؤخذ إليها الزائرون . وساعدت من هذه البقعة الصغيرة من الأرض على تحريك البابوية وعلى أن تبت في أهل إيطاليا من التقوى ما بقي بعد ريناشيتا Rinascita وريزرجمنتو Risorgimento . وانضمت وهي في الخامسة عشرة من عمرها إلى طائفة التوبة التابعة للقديس دمنيك ، وكانت هذه الطائفة منظمة « ثلاثية » تتألف من رهبان أو زاهبات ، بل تتألف من رجال ونساء يعيشون كما يعيش أهل الدنيا ، ولكنهم يخصصون حياتهم قدر استطاعتهم لأعمال الدين والبر . وكانت كثرين تعيش مع أبويها ، ولكنها جعلت حجرتها أقرب ما تكون إلى خلوة الزهاد ، وانهمكت في الصلوات والتأملات الصوفية لا تكاد تترك حجرتها إلا للذهاب إلى الكنيسة . وقلق أبواها واضطربا لتفكيرها المتصل في شؤون الدين وخشياً أن يؤثر ذلك في صحتها ، فكانا يعهدان إليها بأشق أعمال البيت ، ولكنها كانت تؤديها بلا مال ولا شكوى وتقول : « إنني أخصص في قلبي ركناً صغيراً ليسوع » (٢٨) . وظلت محتفظة بصفاء كصفاء الأطفال . وبينما كان غيرها من البنات يبحثن عن جميع المباهج ، والشكوك ، والنشوة في الحب « الدنس » ، كانت هي تبحث عنها وتجدها في الخشوع للمسيح ؛ وكانت وهي في عنفوان هذه التأملات المتزايدة أثناء عزلتها تفكر في المسيح وتتحدث إليه كأنه حبيبها السماوي ، وتتبادل القلب معه ، وترى نفسها في الروي كأنها قد تزوجته ، وأطالت التفكير في جراح المصلوب

الخمسة ، كما أطال التفكير فيها القديس فرانسيس ، حتى كانت تشعر بهذه الجراح في يديها وقدميها وجنبيها . ونبتت كل شهوات البدن ، وكانت ترى فيها وسوسة من الشيطان ، وأساليب خبيثة لحرمانها من ذلك الحب الذي تنهمك فيه وحده .

وقفت ثلاث سنين لا تكاد تنصرف فيها عن وحدتها ونقاها ، أحست بعدها أن في مقدورها أن تخرج آمنة إلى حياة المدينة ، وكما أنها كرست أنوثتها للمسيح ، فقد خصت ما انطوت عليه من حنان الأمهات إلى العناية بالمرضى ، والمعوزين من أهل سينا ؛ فكانت تبقى إلى آخر لحظة مع ضحايا الطاعون ، وتواسى برووحها المحكوم عليهم بالإعدام من المجرمين حتى ينفذ فيهم حكم الإعدام (٢٩) . ولما توفى والداها وتركا لها ميراثاً صغيراً ، وزعته على الفقراء ؛ وكان وجهها ، وإن شوهه الجدرى ، نعمة وبركة لكل من شاهدها . وكان الشبان يندون ، بكامة تصدر منها ، ما اعتادوه من تجديف ، كما كان الكبار يستمعون إلى فلسفتها الساذجة الصادقة فتدوب منها شكوكهم . وكان من رأيها أن جميع شرور الحياة إنما هي نتيجة لخبث الإنسان ، ولكن جميع خطايا البشر ستمحى وتزول في بحر حب الله ؛ وستزول شرور العالم كله إذا رضى الناس أن يعتادوا حب المسيح . وآمن كثيرون من الناس بها ؛ وبعث إليها مونتى بلشيانو Montepulciano تدعوها لتزيل الحصار بين أسرتيها المتعاديتين ؛ وكانت مدينتا پيزا ولوك تستنصحنها ، ودعتها فلورنس لأن تنضم إلى وفد ترسله إلى أفنيون ، وهكذا استدرجت شيئاً فشيئاً إلى شئون العالم .

وهاها ما شهدته في إيطاليا وفرنسا : فقد رأت رومة قدرة هيجورة ، ورأت إيطاليا وقد انفصلت عن كنيسة هجرتها إلى فرنسا ؛ ورأت رجال الدين وقد فقدوا بحبهم الدنيا اعترام غير رجال الدين ؛ ووجدت فرنسا وقد خربت نصفها الحروب ، وحماتها ثقفتها برسالتها القدسية على

أن تندد بالمطارنة والأخبار في وجوههم ، وتقول لهم إن عودتهم إلى رومة وإلى الحياة الصالحة هي وحدها التي يمكن أن تنقذ الكنيسة مما هي فيه ، وإذ كانت هي نفسها عاجزة عن الكتابة ، فقد أخذت وهي فتاة في السادسة والعشرين من عمرها تملئ بلغتها الإيطالية البسيطة الرنانة رسائل صارمة ولكنها يسرى فيها الحب تبعث بها إلى البابوات ، والأمراء ، والحكام ، وتكاد تظهر في كل صفحة من صفحاتها تلك الكلمة التي كانت تنبئ بما سيكون وهي كلمة الإصلاح ؟ وأخفقت في مسعاها مع رجال الحكم ، ولكنها أفلحت مع الشعب . وابتهجت حين جاء إربان الخامس إلى رومة ، وحزنت حين غادرها ، ثم عادت إلى الحياة النشيطة حين جاء إليها جريجورى الحادى عشر ؛ وأسدت النصح الرشيد إلى إربان السادس ، ولكنها روعت من وحشيته ؛ ولما أن مزق انقسام البابوية العالم المسيحى وفرقه شيعتين ، كانت بين الضحايا الأولى لهذا النزاع الذى لا مبرر له ، ذلك أنها قلت طعامها حتى لم يكن يزيد على بضع لقيات ، وأوغلت في النسك إيغالا بلغ من شدته ، كما تقول القصة ، أن كان غذاؤها الوحيد هو الخبز المقدس الذى تتناوله أثناء العشاء الربانى . وكان من أثر هذا أن فقدت قدرتها على مقاومة المرض ، كما أن الانقسام الدينى أفقدها إرادة الحياة ، فانتقلت إلى الدار الآخرة بعد عامين من هذا الانشقاق ، وكانت وقتئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها ( ١٣٨٠ ) . ولا تزال حتى اليوم قوة تعمل للخير فى إيطاليا التي كانت تحبها لا تزيد عليها فى ذلك إلا قوة المسيح والكنيسة .

وولد فى ذلك العام نفسه وفى المدينة التي توفيت فيها كثرين القديس برنردينو St. Bernerdino وصاغته وشكلته التقاليد التي خلفتها ، فكان يقضى أيامه ولياليه أثناء الطاعون الذى فشا فى عام ١٤٠٠ فى العناية بالمرضى ؛ ولما انضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيسى ضرب لهم المثل فى العمل بقوانين الطائفة والتقىد الشديد بها . وحذا كثيرون من الرهبان حذوه ،

وأنشأ من هؤلاء ( ١٤٠٥ ) طائفة الفرنسيس الممثلين Obeervantine Franciscans أى الإخوان الذين يتقيدون تقيداً صارماً بقوانين تلك الطائفة ؛ وخضعت له قبل موته ثلثمائة من الأديرة :

وخلعت طهارة حياته ونبلها على مواظبه بلاغة لا تستطيع مقاومتها ؛ وكان فى رومة نفسها ، التى كان أهلها أشد خروجاً على القانون من أهل أية مدينة أخرى فى أوربا ، يستدرج المجرمين إلى الاعتراف بجرائمهم ، والحاطين إلى التوبة من خطاياهم ، والمتخاصمين الذين اعتادوا الخصام إلى أن يجنحوا للسلم . وأقنع برنردينو رجال رومة ونساءها ، قبل أن يحرق سفرولا الباطل فى فلورنس بسبعين عاماً ، أن يلجوا بورق اللعب ، والورد ، وتذاكر اليانصيب ، والشعر المستعار ، والصور والكتب البديئة ، وآلاتهم الموسيقية نفسها ، فى كومة كبيرة جنازية على الكبتول حيث أشعلت فيها النار ( ١٤٢٤ ) . وأحرقت بعد ثلاثة أيام من ذلك العمل وفى الميدان نفسه فتاة اتهمت بالسحر ، واحتشدت رومة على هكرة أبيها لتشاهد المنظر (٣١) . وكان القديس برنردينو نفسه « من أشد الناس اضطهاداً للإلحاد إرضاء لضميره » .

وهكذا اختلط الطيب والخبيث ، والجميل والمروع القبيح ، فى تيار الحياة المسيحية وفوضاها . وظلت الجماهير الساذجة من أهل إيطاليا قانعة بجأها التى كانت عليها فى العصور الوسطى راضية عنها ؛ أما الطبقتان الوسطى والعليا ، وقد كادت تسكرهما خمر الثقافة القديمة التى طال اخترانها فى البلاد ، فقد كان أفرادهما يغدون ويروحون تملأ أعطافهم الروح المتحمسة النبيلة لخلق النهضة والإنسان الحديث .